فتنة وحدة الوجود
والدكتور زكي مبارك
للأستاذ دريني خشبة

لست أدري علة هذا الموقف الذي يحاول أن يقفه الصديق الفاضل الدكتور زكي مبارك من فتنة وحدة الوجود ! لقد حاولت بكل الوسائل أن أجتذبه إلى الميدان الذي لم يكن شك في أنه واجد فيه أخوة كريمة وصراحة تامة ، وطريقاً منضورة بالورد . لكنه آثر السلامة آخر الأمر ، وليته في إيثاره السلامة كان رجيماً بالناس كما يقول فأغلق باب جهنم حتى لا يصلى بحرها أحد لا من الخاصة ولا من العامة ...

لقد وعد الأخ الكريم أن يجلي للناس غامض هذه الفتنة بعد إذ لاحظ أن كل الذين كتبوا عنها حاموا حولها ولم يخوضوا فيها ... لكنه أخلف ، ثم وعد ، ثم أخلف ، ثم وعد ... ثم آثر السلامة آخر الأمر ، خوفاً من بلبلة أفكار المسلمين ، وإشفاقاً على العامة من أن يزلزل إيمانهم ... فما هذا الذي يقوله الأستاذ ؟ وأي وسيلة لبلبلة الأفكار أفتك من هذه الوسيلة من وسائل الحوار ؟ إن الأستاذ بموقفه ذاك يلقي الريب في قلوب المسلمين أضعاف ما كان يفعل لو أنه توكل على (الوجود المطلق الكلي) فشرح لنا وحدة الوجود كما يفهمها ويؤمن بها ... على أنني أسبق فأطمئنه ؛ فمهما حاول الأستاذ أن يوهم بأن الذي قاله الشيخ معروف الرصافي في هذه الوحدة حق ، فلن يتأثر بإيهامه أحد من المسلمين الصادقين الذين لا يعقلون كيف تكون الخمر والبغال والمجانين والبيغاوات ... و ... وهذه القطة النائمة التي (تخربش) من يوقظها أجزاء من الله الذي يعبدونه ويخبتون له أو مظاهر لهذا الإله العجيب الذي يقول أنصار وحدة الوجود إنه لا وجود إلا له ... أما هذه المخلوقات فهي باطل ... هي وهم ... ولست أدري كيف يكون وجود الرصافي وهماً وباطلاً ، ووجود الدكتور زكي مبارك وهماً وباطلاً ... وها هو ذا يعترف بوجود نفسه ويعترف الناس بوجوده ويأكل ويشرب ويسافر وحده أو مع غيره ويعلم وينتفع الناس بعلمه وينصح التلاميذ الأغنياء ويواسي التلاميذ الفقراء ، ويكتب في الجرائد والمجلات ويحاضر ويخطب ويؤلف إلى آخر ما يقوم به من شؤون هذه الحياة الدنيا ولست أدري كيف يؤمن أخي الدكتور زكي بأنه لا وجود له وهو ينكر الموت في السؤال الذي يوجهه إلى لأحترق إذا حاولت أن أبينه له ! إن الوجود كما تقول يا صديقي ليس فيه موت ، فكيف تؤمن بوحدة الوجود إذن وهي تقول — أو الحرفون الذين يؤمنون بها يقولون ، إن الموجودات كلها عدم ، ولا وجود إلا للوجود الكلي المطلق الذي لا أدري وحياتك يا أخي ماهو ؟ ثم كيف تجهر يا أخي بأنك تكفر بالموت ؟ أتعني بذلك أن أحداً من حضرات أجدادك — وأجدادي — لم يمت ؟! احذر يا أخي أن تظن أنني أستهزىء بأحد ، فالمسئلة أجل من هذا ! أحرام إذن أن أدعو لوالدي وأجدادي بالرحمة ، وهذيان أن أقول اللهم ارحم أجداد أعز أصدقائي الدكتور زكي مبارك ؟! ثم ما هذا الذي تقوله يا أخي ؟ لماذا توهم الناس أن وراء الأكمة قطة (تخربش) ! وقد آثرت القطة الظريفة اللطيفة السلامة ؟ ثم ماذا تصنع الخربشة ما دام أنه لا موت ؟ وماذا في الاحتراق تخيفني به وهو لا يميت ؟! ولماذا تمنعني عن الإجابة على سؤالك فتدعوني بهذا المنع إلى السكون ، وأنت نفسك في سؤالك تجهر بأنه لا سكون ... وبهذه المناسبة يا أخي ، هل باطن جبل القطم متحرك غير هذه الحركة الكلية التي تحمله فيها الكرة الأرضية في رحلتها السماوية ؟ وهل باطن الجنيه الذهبي الذي تشتري بألفين منه — ألفين عداً ونقداً — عزبة عامرة بفلاحيها وجاموسها وبطها وأوزها ؟ وإذا كان باطن القطم متحركاً ، وباطن الجنيه — الجنيه الذهبي ! — متحركاً ، وباطن كتلة الفولاذ متحركا ، وباطن زجاج كؤوس الطلي التي حفها — أو لم يحفها — الحبب — المتحرك دائماً — متحركاً ... فعوضنا نحن المؤمنين السذج على الله في عقولنا ، أو في غباوتنا !

آه ... تذكرت ... إن كتلة المادة مركبة من الكترونات ! والألكترونات هي هذه الذريرات من الكهرباء السالبة تدور بسرعة حول بروتونات من الكهرباء الموجبة . وعلى هذا فكل شيء متحرك حتى باطن جبل القطم وباطن الجنيه الذهبي

والفولاذ وزجاج كؤوس الطلى ... وحتى الموتى متحركون بتحرك ذراتهم على هذا النحو ... وليس فى الدنيا فضاء لأن الفراغ الموهوم بين الكواكب والسدم تملأه الجاذبية ؟! وما الموت عندكم إلا نوع من أنواع التحول !

ولكن ما هذا كله وما نحن فيه ! لماذا تخيفنى يا أخى إن أنا أجبت على سؤالك الهائل عن هذا النحو ؟ وبعد صدور الرسالة صبيحة يوم الأحد بنصف ساعة ؟! هل كنت تحسب أن الإجابة على هذا السؤال هى من قبيل ذلك المضنون به على غير أهله ؟ لأنه من العلوم اللدنية . على أن الأمر أيسر من أن يخفى وراءه أحداً . إنك تريد أن تقول إنه ليس فى الوجود فضاء ، فلا مكان لله إلا المكان الذى يشغله العالم !؟ وعلى هذا فالله حال فى العالم . وإذن فأنت تؤمن ، مع إيمانك بوحدة الوجود ، بالحلول الذى ينافى الإسلام الصحيح

يا أخى :

قبل أن نبعد ... أسارحك أنى لا أقبل الدنية فى دينى ، ومن الدنية فى الدين أن ألف معك إذا لففت ، وأن أداورك إذا داورت . لتكن صرحاء إذن . فمن ورائنا ألوف القراء من المسلمين ومن غير المسلمين يرتقبون أن تنكشف هذه الغمة التى لم أفر من ميدانها حينما طلبت إلى أن أساجلك فيها ، ولم أطلب أنا منك شيئاً قط قبل أن تبدأ أنت بطلب هذه المساجلة ، فى أمر أنت أول من يشهد بين يدى ربك أنه باطل ، لأنك أقمت على ذلك الحجة التى لا تدفع فى كتابك القيم الذى كان سبب هذا الشر ، وأن يصدقك أحد اليوم إن تصيدت المعاذير عن نقضك لهذه النظرية بمثل الحجة الفارغة التى جئت بها فى كلمتك الظريفة فى العدد الماضى ، والتى تدعى فيها أن « البحث العلمى الذى ارتضيته لنفسك يوجب أن تدرس كل نظرية من جميع الجوانب مع التحرر من رأيك الخاص ، حرصاً على تثقيف قرائك » . فليس هذا بعذر ! لأنك لم تتبع تلك الطريقة فى أى كتاب من كتبك ، لأنك أقمت الدنيا وأقعدتها بكتابك عن الغزالى لأنك أعلنت فيه عن (رأيك الخاص) الذى كان الإجماع منعقداً ضده ومع ذلك فقد انتصرت ! هذا ، وقد ألمت ، بالرغم من ذلك بكل النظريات التى سبقت إليها عن الأخلاق عند الغزالى ، وأرجوك أن تعود إلى كتابك الثمين هذا فتقرأه إن كنت قد أنسيت ما فيه

ثم أنت قد أتيت فى كتابك عن النثر الفنى — هذا الكتاب القيم أيضاً ، الذى أشدت لك ألف مرة بقيمته ، بالرغم من البقع الكبيرة التى فيه ، بنظريتك العجيبة التى لا يقرك عليها أحد فى إعجاز القرآن بمعانيه لا بأسلوبه . وهذه النظرية هى بلا شك رأيك الخاص الذى جئت اليوم ترعم أنك تخفيه وتتحرر منه فى دراستك لأى نظرية من جوانبها المتنوعة ... وأعود فأرجوك أن تعود إلى كتابك الثمين هذا فتقرأه إن كنت قد أنسيته

ثم أنت أيضاً فى كتابك عن التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق لم تكن مقراً للنظريات التى سبقك إليها الناس ، وإلا ما استحققت قط أن تمنحك الجامعة درجة الشرف فى الفلسفة . بل منحتك الجامعة هذه الدرجة لحسن مناقشتك لتلك النظريات وتزييف ما يستحق التزييف منها ، وإحقاق ما يستأهل الإحقاق ، ولو من وجهة نظرك أنت ، لا من وجهة نظر الممتحنين ... ويؤسفنى أن تضطرنى إلى تذكيرك بهذا كله بعد كل ما نلته من درجاتك الجامعية ... كما يؤسفنى أن أراك تقف هذا الموقف فى قضية لا تستطيع أن تجهر برأيك فيها بعد أن أعلنت (أنا) للعالم أنك عندى أجرأ كاتب فى مصر ، بل فى الشرق العربى كله ! فإذا سألتك هل تخشى على الإسلام شيئاً من إعلان ما تعتقد أنه الحق فى نظرية وحدة الوجود نفيت ذلك النفى الشفشاف ، وقلت : كلا ، بل خشيتى هى على عامة المسلمين الذين لا خير لهم فى الإيمان بهذه النظرية . . ولست أدرى لماذا لا ترى لهم مصلحة فى الإيمان بها ؟ أليس كما قررت فى كتابك لأن هذه النظرية تهدم القوانين والشرائع وتنسف الأخلاق المقررة التى تواضع عليها الناس ، والتى يكون أمرهم بدونها فوضى يستوى فيها الخير والشر ، والتقى والدعارة ، والهدى والعمى ، والرشد والغواية ، والأبيض والأسود ، والسجود بين يدى الله الواحد القهار ، وإكباب المرء على حليلته فى وضح النهار !

ما هذا الموقف الزئبقى يا صديقى ؟

كيف تتنكر لماضيك بهذه السهولة وبذلك اليسر ؟ وكيف

تخشى أن تعلن عن رأى تؤمن أنه الحق ، وأنت تعلم أنه ينقض ديننا الحنيف وينافيه ، لأنه دعوة إلى التجسيم والحلول ، وإن حاول أهل وحدة الوجود أن ينكروا ذلك بادعائهم أن جميع المخلوقات باطل ووهم لأنه لا موجود إلا الوجود المطلق الكلى ؟

وبعد . فقد كنت لخصت آراء صاحبك الرصافى التى علق بها على كتابك فى التصوف ... وقد ذكرت أن هذا الرجل يجهر بما يأتى :

١ — أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو مخترع خرافة وحدة الوجود

٢ — وأنه لم يخبر بذلك أحداً من أصحابه إلا ما لمح به لأبى بكر

٣ — وأن القرآن من تأليف محمد بدليل ما دأب على ذكره من قوله : قال محمد فى القرآن

٤ — وأنه كان يعتذر لمحمد عن ذلك بأنه كان يفنى فى الوجود المطلق الكلى فيخيل إليه أنه ينطق بلسان الله الذى هو هذا الوجود

٥ — وأنه لا يرى معنى للصلاة والأدعية لأنها لن تغير فى نظره شيئاً من قوانين الوجود المطلق الكلى التى هى قضاء الله وقدره ...

٦ — وأنه لا يرى معنى للبعث الذى يؤمن به المسلمون وجاء به القرآن الكريم

٧ — وأنه لا يرى معنى للحساب ، ولا للثواب والعقاب . إنما الثواب أن (يموت الإنسان) فيعود إلى التراب ويتحد بالوجود المطلق الكلى ... والعقاب هو ذاك أيضاً مع شىء من وخز الضمير

٨ — أن التضادات أمام الوجود المطلق الكلى سواء ، ومن هنا استواء الخير والشر وغيرهما مما قدمنا . ومن هنا ألوان الشذوذ الأخلاقية التى نددت من أجلها بالتصوفة ... أو ببعضهم ... فى كتابك

٩ — أنه يخضع تفسير كثير من آيات القرآن لأهوائه فى خرافة وحدة الوجود . فالله : الظاهر والباطن . أى المنظور المسموع المشموم المأكول الخ . ثم ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . أى الجبر المطلق الذى ليس معه لمخلوق اختيار فى شىء ما

ثم أشياء أخرى لا أذكرها الآن

فما رأيك أنت فى هذا كله ؟ أحق هو ؟ إنك إلى الآن تؤيد نظرية وحدة الوجود وتشفق من تفسيرها على ما نرى . فكن حراً فى إشفاقك هذا ، ولكن هل تتفضل فتبدى رأيك فيما يذهب إليه صاحبك من هذه الآراء التى ربما خيل إلى الناس أنك تؤمن بها لإيمانك بوحدة الوجود !

يا دكتور زكى :

أعود وأذكرك أننى لا أرضى الدنيئة فى دينى ، وأننى لن أتق على إرضائك لأسخط الله ... وأنت الذى انتهيت بى وبك إلى هذا الوضع ، وهأنذا قد كشفت عن مقصدك فى سؤالك عن القضاء والكون والموت . فعسى ألا تعود إلى إثارة السلامة وإثارة الغبار فى وجوه الناس

ولست أحذرك أن تحترق بشىء ، ولكنى أدعوك بالهداية والتوفيق ، وهكذا علمنا رسول الله ، فلنتخذه أسوة

دمرداش عبيه

كتاب الأديب

سلسلة كتب جديدة يساهم فى تحريرها كبار كتاب الشرق العربى . صدر منها الكتاب الأول

للأستاذ عبد الله العلايلى

المعرى وزائر الموزول

أطلب نسختك من معهد الأديب ، فإذا فاتتك فاطلبها مباشرة من إدارة الأديب

الثمن ٣٠ ق م .